إشكالية الفهم كزاوية لكتابة تاريخ الاستعمار الفرنسي بالجزائر

أ. الطاهر عمري
المدرسة العليا للأساتذة. قسنطينة.

إن نظرية الإدراك "Théorie de perception" قد تجاوزت في استعمالاتها حقل علم النفس وصار بالإمكان إعطاؤها تطبيقات في ميادين كثيرة منها علم النفس التعليمي "La psychologie de l'apprentissage" وعلم النفس العيادي ونطمح نحن في هذا المجال إلى استعمالها كمفهوم إجرائي في ميدان علم التاريخ خصوصا وأن المتخصصين في ميدان علم نفس الإدراك يؤكدون على أن « إهمال تنظيم المحرضات التي تصل إلى الحواس من العالم الخارجي يجعل المرء يعيش حالة من الفوضى الإدراكية. كما أن تنظيم هذه المحرضات بطريقة عزل العناصر غير المرغوب في إدراكها أو إدراك عناصر غير موجودة كل ذلك يجعلنا نعيش عالما من

الأوهام»*. كل هذا المسعى هو من أجل كتابة جديدة لتاريخ الجزائر تستعمل لصالحها مكتسبات علوم الإنسان الحديثة في جوانبها المعرفية والمنهجية.

فقد لاحظنا من خلال بحثنا في تاريخ الجزائر الحديث أن بعض الكتابات تحاول أن تفرض قوالب جاهزة من حيث زاوية الرؤية مع أنها تصادر على المطلوب؛ إذ تفترض منذ البداية أن الاستعمار الفرنسي كان يعرف كل شيء عن المجتمع الجزائري وأنه جاء بمخطط مسبق وواضح المعالم والخطوات من أجل تحطيم بنى هذا المجتمع. كما تفترض نفس هذه الزاوية في التحليل أن الجزائريين كانوا يعرفون كل شيء عن الاستعمار وأنه كانت لديهم فكرة واضحة حول كيفية مواجهته. وقد قمعت هذه النظرة كثيرا من عناصر الفهم الضرورية وأغرقت تاريخ المقاومة العسكرية خلال هذه المرحلة في الغموض وكرّهت إلى الأجيال قراءته.

تعيد هذه الزاوية في القراءة تاريخ الجزائر إلى أحضان الثقافة العربية الإسلامية.

أولاً- وصف الإشكالية

1. الصدمة التاريخية:

إن الحكم على الأشياء هو-كما يقول علماء المنطق- فرع عن تصورها. وانطلاقا من هذه القاعدة المنطقية فإنه من المفيد-منهجيا- أن ندخل لموضوعنا من باب تصور الجندي الفرنسي للمجتمع الجزائري و بناه الأصلية، و كذا تصور الجزائريين لرواد الغزو، مع أول احتكاك بين الطرفين. وسوف يساعدنا ذلك على فهم آثار الغزو على بنية المجتمع الجزائري. وللحصول على مقاربة واقعية في

الموضوع لا بد من الرجوع إلى الشهادات المعاصرة لبدايات الغزو، و ما توفره لنا المصادر القريبة من تلك الفترة.

لقد لخص **حمدان خوجة**، و هو أحد المعاصرين لهذه الفترة، في كتابه **المرآة**، نظرته إلى الحملة الفرنسية على الجزائر و اعتبرها "صدفة تاريخية" "Hasard historique". وأرجع أسباب الخصومة بين الحكومة الفرنسية وداي الجزائر إلى تشابك معقد لأخطاء سببها سوء الفهم المتبادل بين الطرفين[1].

و إذا أهملنا-إلى حين- الأطماع المادية و الأحقاد الروحية التي وجهت هذه الحملة، سنة 1830، و اقتصرنا-تبعا للمنهج الذي اخترناه- على تصور الجندي الفرنسي و المعمر الأوروبي للواقع الجزائري، فإننا نقف على جوانب هامة، تساعدنا على إدراك ثقل هذه "الصدفة" التي تحولت-شيئا فشيئا- إلى "صدمة" للطرفين. وقد ظهر، من خلال الأحداث المتلاحقة، أن قادة الجيش الفرنسي لم يستفيدوا شيئا من تجربتهم في مصر. إذ يذكر المؤرخون أن هؤلاء لم يتمكنوا من فهم طبائع الشعوب الإسلامية، فهم كانوا يجهلون بنية المجتمع الجزائري، دينا و دنيا، وإدارة. بل إن «الحقد الأعمى، الذي تضاعف أوائل القرن التاسع عشر ضد الولايات العثمانية بشمال إفريقيا، كان قد تشبع من نفوس قادة الحملة الفرنسية على الجزائر».[2]

كما تشهد المصادر الفرنسية أن صورة المجتمع الجزائري، لدى رواد الغزو، كانت تصدر عن الخيال أكثر مما تصدر عن الواقع. وقد عبر بعضهم عن هذه الصورة الغامضة "بالسراب الجزائري Mirage algérien" الذي استمر طويلا بعد هذا التاريخ[3]. كتب شارل تايارد Charles Taillard يقول: "لم تكن فرنسا

تعرف عن الدولة الجزائرية سنة 1830 إلا الشيء القليل[4]، أو هي لا تكاد تعرف عنها شيئاً بالمرة"[5]

2. تأثير الإيديلوجيات

كانت الأفكار السانسيمونية، في فرنسا خلال هذه الفترة، تجتذب إليها عددا من رواد الغزو العسكريين، الذين كانوا يؤمنون بالنضال من أجل برنامج طموح يتعلق بالتطور الاقتصادي و المشروعات الكبرى. و كان بعضهم يناضل داخل أحزابهم من أجل الترويج لمذهبهم السياسي و الاجتماعي باعتبار أن «السانسيمونية-مثل غيرها من المذاهب السياسية والاقتصادية-كانت تطمح لتحقيق سعادة الإنسانية (...) والنفع العام ،دون نظر لمصالح الأفراد»[6]. غير أن هذه الأفكار «لم تكن عبارة عن برنامج واضح »[7]. ولذا فإنه عندما يواجه هؤلاء القادة الشبان المتشبعون بأيدلوجياتهم مجتمعا تحت وقع "الصدمة"، فلنا أن نتصور جميع المشكلات التي يمكن أن تحدث من جراء هذا الصدام[8]. وذلك رغم طموحاتهم الواقعية أو الحالمة في نشر الحضارة بطريقة الغزو العسكري. و يذكر المحللون أن كثيرا من رواد الغزو كانوا يفهمون الاستعمار على أنه إرادة واعية لنشر الحضارة، و لكن هناك خطرا كان ينبغي أن يتوقعوه -كما تقول إ. تران- وهو "احتمال الاصطدام بحضارة أخرى"[9].

و قد أثبتت لنا الأحداث التاريخية فيما بعد أن الحكومة الفرنسية عندما أرسلت قواتها لغزو الجزائر لم يكن لديها أي مشروع واضح بهذا الشأن، و لم تقم – على حد علمنا- بأي دراسة مسبقة بشأن الجزائر. كما أن الأفكار التي كانت تروج في فرنسا عن الجزائر" كان أكثرها مغلوطا ومشوها"[10]. بل إن كثيرا من

رواد الغزو أنفسهم اعترفوا بأنهم كانوا يجهلون كل شيء عن الجزائر، إلا ما قرأه بعضهم في تقارير الجواسيس ورحلات المستشرقين[11] والقلائل من بينهم -فقط- هم الذين كلفوا أنفسهم عناء التعرف على هذه البلاد.

فكلهم -تقريبا- كانوا يعلمون أن الجزائر كانت "مركز القرصنة"، و أن حكامها أتراك "متوحشون"، و أهلها عرب "منحطون"، و لكن ما هي الأحوال في الداخل؟ وما هي الطبائع والعادات و الملامح الاجتماعية للشعب؟ و ما نوع الحكومة التي يمكن أن تحل محل الحكومة التي انهارت؟ وما هو النظام الإداري الذي يجب إدخاله؟ كل ذلك لم يفكر فيه أحد آنذاك، فقد كان "الجهل واللامبالاة مطبقين بخصوص تلك النقط" كما يقول إسماعيل حامت[12].

3. نتائج الجهل بالآخر

وقد جعل هذا الجهل بالجزائر وسكانها وبناها الأصلية، المجتمع الفرنسي وحكومته يختلفان بين مؤيد ومعارض بشأن الاحتلال الجزئي أو الشامل وبين الاحتفاظ بالجزائر أو التخلي عنها نهائيا.[13] كما جعل هذا الجهل "بالآخر"- الجزائري- القادة العسكريين الفرنسيين يعانون لفترة طويلة من التخبط الإداري والفوضى في تثبيت وجودهم بالجزائر. الأمر الذي جعلهم يتعرضون للشك والتهجم و الرفض من طرف الجزائريين[14]. و نورد كمثال على عجز الجندي الفرنسي عن تصور الواقع الجزائري ما جاء في رسالة موجهة إلى الكونت **كلوزيل**، مؤرخة في 20 ماي 1831، صادرة عن أحد مساعديه يقول فيها «لقد طلبتم أن أفصل لكم نظري حول إقامة مؤسسة للتعليم العام بالجزائر(...) ينبغي أن أعترف لكم أنني لا أعرف الجزائر إلا من خلال الوصف»[15].

إن من الأفكار الاستشراقية، التي كانت رائجة في أوروبا، قبل غزو الجزائر، و التي يكون رواد الغزو قد تأثروا بها، الفكرة التي تزعم أن الإنسان العربي لا يحب إلا من يخضعه بالقوة.[16] وما دام المستشرقون الأوروبيون قد ساهموا في الغزو منذ حملة **دي بورمون** على الجزائر[17] فلا يستبعد أنهم قد كرسوا نظرية استعمال العنف المادي مع الجزائريين، باعتبارهم لا يخضعون إلا للقوة.

و لم يكن الجهل "بالآخر"- المستعمر- لدى الطرف الجزائري بأقل منه لدى الغزاة الفرنسيين. وكان مما يعقد الوضع ويصعب العلاقات هو الأفكار المسبقة التي كان الجزائريون يحملونها عن " الغزاة المسيحيين" والتي كان معظمها -إذا أخذناها في إطارها التاريخي آنذاك- مشبعة بروح العقيدة الإسلامية، ومرفقة بالكراهية الناتجة عن السنوات الطويلة للخصومة بين الطرفين.

جاء في تقرير حمدان خوجة، إلى **اللجنة الإفريقية**، سنة 1833، قوله: «وهناك سبب أخر منع من ظهور الحقيقة، و هو أن أبناء قومي يجهلون مؤسسات الفرنسيين، وقوانينهم وعاداتهم وموضوع وجودهم في إفريقيا»[18]. وكان من نتائج هذا الجهل لدى الجزائريين، أن الغزو الفرنسي في بداياته لم يثر لدى هؤلاء أي خوف أو قلق. لأن ذلك كان من الأمور المألوفة لديهم، إذ طالما نزل الفرنجة بالشواطئ الجزائرية قبل ذلك. بل إن هؤلاء كانوا قد احتلوا بعض المدن الساحلية، فطالما رفرفت أعلام إسبانيا على حصون وهران، وخضعت عنابة والجزائر مرات عديدة لمطالب الأوروبيين، ولكن كل ذلك قد انتهى. ولذلك لم يشعر الجزائريون بخطورة الفرنسيين الغزاة في البداية، بل إن تصرفات هؤلاء هي التي أقنعت الجزائريين أن هذا الحضور لم يكن بالأمر العادي[19].

4.تأثير الأفكار الدينية

وإذا قرأنا موقف الجزائريين، في ضوء البنية الثقافية والدينية للمجتمع في ذلك الوقت، ظهر لنا أن الجزائريين كانوا يعتقدون أن الله لن يسمح للكافر "بتدنيس" جزء من أرض الجزائر **المحروسة** التي هي قطعة من دار **الإسلام**. ولكن يظهر أن شراسة الغزو قد وضعت حدا لهذا الاعتقاد، و صارت هزيمة الجزائريين، تفسر على أنها "تعبير عن غضب الله على عباده المنحرفين عن منهجه الصحيح".[20]

وهذا ما نجده في قصيدة **ابن الشاهد** في احتلال الجزائر إذ «خاطب فيها أسوار الجزائر التي كانت حصينة ومع ذلك سقطت أمام الأعداء متسائلا ما إذا كان سقوطها من الخوف أو من الخيانة. ويعيب على أهل الجزائر ابتعادهم عن الله مما أوقعهم في قبضة الجور والجهل وخراب الاقتصاد وبوار البيوت..».[21] وهذا الموقف الديني-في نظرنا- لم يكن يعبر عن رأي فئة فحسب، بل ربما كان يمثل الرأي العام الذي يعبر عن الحالة الثقافية وبنية المجتمع في ذلك الوقت. وبالتالي فإن «هذه الفكرة-كما يقول حمدان خوجة- هي فكرة كثير من الناس»[22].

بل إنها -كما يقول ديبارمي- تمثل « عمق العقلية المغربية ». فهذا المداح عبد القادر، الذي شهد بدايات الاحتلال، يقول في قصيدة مطولة[23]:

سلطانت المدون الجملا ولات غير في يد اعدانا

ولات للنصارى شينين الدين

ثانياً.مقاربات لتحليل بعض الأحداث التاريخية بواسطة إشكالية الفهم:

المقاربة الأولى:

نظريات الإبادة العرقية:

إن النظام الإستعماري -في الواقع- لا يمكن أن يوجد ويستمر إلا من خلال نظام "نفي الأخر". ذلك أن الاستعمار-كما يؤكد الباحثون- "ارتبط منذ نشأته بالاستغلال أوثق ارتباط. بل كان الاستغلال هدفا أساسيا من بين أهدافه"[24]. ويفترض هذا الاستغلال -منذ بداياته- عنصرين هامين: ترسيخ نوع من العلاقات الاجتماعية الرأسمالية، وبالتالي تحطيم العلاقات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية (البنى الأصلية)، أو إخضاع هذه الأخيرة للبنى الرأسمالية الجديدة، في حالة العجز عن تحطيمها. وهذان العنصران "شرط أساسي لإستمرار الوجود الاستعماري"[25]. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن البنى الأصلية للمجتمع الجزائري تسري فيها روح العامل الديني، استطعنا أن نفهم كيف أنه من الصعب ترسيخ علاقات اجتماعية رأسمالية على حساب البنى الأصلية، و من هنا يصبح القضاء على هذا العامل أو على الأقل التخفيف من مقاومته أمرا إستراتيجيا بالنسبة لرواد الغزو. ولكي يتم لهؤلاء العسكريين التخفيف مما يسمونه التعصب الديني، ولكي يستميلوا إليهم هذا الشعب الجزائري، ينبغي، كما يقول حمدان خوجة،" أن تغير استعداداته؛ فتمحي من ذهنه تلك *الأفكار السوداء* التي كونها عن الطبع الفرنسي، والتي لم يكن يعرفها من قبل. وهي اليوم من سوء الحظ-يقول حمدان خوجة- تزداد تفشيا في أعماق قلوب الأهالي.."[26].

غير أن هذا المشروع المقترح من حمدان خوجة، والذي يهدف إلى تطبيع العلاقات بين الفرنسيين والمجتمع الجزائري، لن يتبلور -جزئيا على الأقل- إلا بعد عقود من الفوضى الإدارية والعسكرية. وقد بقي الشعور المتفشي في أعماق الجزائريين يتمثل في النفور المتزايد من المستعمرين. وذلك راجع-حسب حمدان خوجة دائما- إلى أسباب أربعة رئيسة، وهي: 1- "الشعور بالاستعباد من طرف أمة أجنبية، استعملت لذلك القوة و التحايل، 2- اختلاف الديانة، لأن سكان الإيالة يتصورون أن الفرنسيين لا يحاربون إلا بدافع التعصب الديني. و هي فكرة تولد لديهم أعمال العنف التي يقومون بها، 3- خشية المآل إلى الفاقة، نتيجة اغتصاب أملاكهم، 4- وأخيرا الأحداث التي و قعت في مدن مختلفة، و التي أمرت السلطة الفرنسية بوقوعها."[27].

لقد ساهمت هذه الأسباب، مجتمعة أو متفرقة، في إقناع الجزائريين أن الغزاة الفرنسيين يتصرفون بدافع الإنتقام و الحقد الديني. ولكن هل قام **منظرو الاستعمار** بعمل شيء لتغيير الإستعدادت ومحو هذه "الأفكار السوداء "من أذهان الجزائريين، على حد تعبير حمدان خوجة؟!

تدعونا محاولة الإجابة عن هذا التساؤل، إلى فحص مقترحات العسكريين في ذلك الوقت، في اتجاه إزالة هذا العائق النفسي المترتب عن *إشكالية الفهم*. وسوف نركز على السنوات الأولى للغزو (1830-1851) بإعتبارها **حقبة مفتاحية** لفهم مستقبل المجتمع الجزائري وقراءة جميع التحولات التي طرأت فيما بعد على بناه الأصلية[28]. كما يجب -للأمانة العلمية- الإشارة إلى أنه كان هناك تناقض واضح في تحليل المشكلات السياسية بالجزائر بين السلطات العليا بباريس، و بين

تنظيرات وتصرفات العسكريين المتواجدين على أرض الجزائر.[29] وهو ما يجعلنا نعتقد أن بعض العسكريين كانوا يصدرون عن آرائهم الخاصة ومستوى إدراكهم للحلول الممكنة. ويؤكد ذلك ما جاء في رد لوزارة الحربية على شكاوى حمدان خوجة،بقولها: "يجب علينا أن لا نثق بعمى، في السلطة المحلية بالجزائر، والتي يمكن أن تحاول تغطية الأخطاء التي ترتكبها هناك."[30]

إن الجزائر لم تكن أرضا **شاغرة**، يسهل الإستقرار فيها دون صدام مع السكان الأصليين[31]، والذين قدر عددهم بثلاثة ملايين نسمة سنة 1830.[32] فيذكر Yaconno أن أغلب المؤلفين الذين تعرضوا لتاريخ الجزائر قد تأثروا بآراء ذات طابع سياسي فيما يخص تقدير عدد سكانها عشية الاحتلال، ويرى، بعد فحص هذه الآراء، أن تعداد السكان آنذاك كان يقدر «بثلاثة ملايين على الأقل وهو العدد الذي أكده أكثر الرجال اطلاعا على شؤون البلاد».[33] وقد كان المجال الحيوي للاستعمار، في بداياته يتحدد بالمنطقة التلية الأكثر سكانا، والأكثر خصوبة في الأرض.

و لإزالة "العائق" النفسي الناتج عن إشكالية الفهم، أصبح السؤال يطرح بالطريقة التالية: ماذا نفعل بالشعب الجزائري؟ وهنا كثرت المقترحات والمشاريع[34]. وطبيعي أن تختلف المقترحات باختلاف المشارب الأيديولوجية للعناصر المشاركة في الغزو: من جيش، وكنيسة، وبرجوازية، وطبقة كادحة مهاجرة، ومنفيين سياسيين، وأفكار اشتراكية أو شبه اشتراكية، وملكيين وجمهوريين وإنسانيين، وشعوبيين وملحدين. ولكنها -في نظر الجزائريين- كانت

تهدف كلها إلى أمر واحد،[35] هو إحلال أمة مكان أمة أخرى، مـــرورا بالإبـــادة العرقية.

والذي يجعلنا نؤكد على نظرية الإبادة العرقية، هو أن هذا الـــرأي كـــان منتشرا بكثرة بين المعمرين ورجال الجيش في تلك المرحلة. ويذكر آجرون أن هذه الفكرة وضعها منظر المجتمع الاستعماري في الجزائر، والمسمى **أرموند فيكتورهان** A.V.Hain، الذي وجه سنة 1832 "نداء إلى الأمة بالجزائر"، يقول فيه باســـتحالة إدماج السكان الأصليين. و أفتى بشرعية طردهم إلى الصـــحراء، أو إبـــادتهم، في حالة المقاومة "مثلهم مثل الوحوش المفترسة، ينبغي أن يتراجعـــوا أمـــام زحـــف مؤسساتنا، وأن يشردوا في رمال الصحراء"[36].

وقد كان بيجو في هذه الأثناء، هو العقل المفكر لمجموعة كبيرة من الضباط الشبان[37]، ذوي توجهات واستعدادات مختلفة ولكنها مميـــزة .ذلـــك أن هـــؤلاء «فهموا أن الحرب في الجزائر تقتضي طرقا أخرى غير تلك المستعملة في الحـــروب الأوربية، وكان منهم لامورسيير الذي يوصف بذي العقل الخلاق والمـــنظم، مـــع معرفته باللغة العربية وتقاليد المجتمع، إضافة إلى كونه رافـــق تجـــارب الاســـتعمار بالجزائر منذ 1830 والى غاية 1848»[38]. وكانت أفكارهم تروج بكثرة في صفوف العسكريين. إذ نجد الكولونيل **دومنتنياك** De Montagniac، وهو من تلاميذ بيجو يتحدث في مراسلاته عن ترحيل الشعب الجزائري كله إلى جزر ماركيز. و كـــان القائد العسكري ريشارد Richard، وهو من تلاميذه أيضا، قد اقترح سنة 1845، حشر الشعب الجزائري خلف الأسلاك الشائكة.

وكان بيجو يعي صعوبة تنفيذ هذه المقترحات، ولذلك فإنه صار يتحدث في منشور مؤرخ في 19 فيفري 1847، عن مزاحمة الشعب الجزائري على أرضه عن طريق انتزاع الأراضي الخصبة من الأعراش، بحيث لا يترك لها سوى الحد الأدنى[39]. وكانت هذه الفكرة -في رأينا- طريقة أخرى لإبادة الشعب الجزائري، عن طريق تفقيره، وفسح المجال للمعمرين الأوربيين.

المقاربة الثانية:

محاولات التأثير على الجوانب الثقافية - الروحية.

1.محاولات التنصير:

يذكر أن المارشال بيجو صرح-بعد أن هزم الأمير عبد القادر نهائيا- سنة 1845، قائلا: "إن كره العرب لنا و لديننا سوف يستمر قرونا عديدة"[40]. وقد علق أحد رجال الدين الكاثوليك وهو **تورنيي** Tournier الذي نقل لنا هذا التصريح، بأن **الإنجيل** و **القرآن** لا يمثلان مجرد ديانتين متناقضتين و لكن يمثلان - وهذا هو الأهم في رأيه- حضارتين متعارضتين. وأضاف أن الشعب المنهزم يحن - دائما- إلى حريته وأن إدماجه لا يكون بسلطان القوة ولا بإغراءات المصلحة. ذلك أن الجزائري -على حد تعبيره- إذا كسرت مقاومته الوطنية والدينية فإن هذه الأخيرة سوف تتشكل في قلبه و فكره، وحينها لا يكون للأسلحة والمدافع أي تأثير بل يجب استعمال السلاح الديني الذي ينفذ إلى أعماق الروح[41].

إن الإبادة العرقية، التي تحدثنا عنها-سابقا- وما صاحبها من تأثير على البنية السكانية والاقتصادية، يجعلنا نطرح تساؤلا، هو نفسه الذي طرحه حمدان خوجة، مع بدايات الاحتلال في قوله: "لو كان الشعب الجزائري يعتنق الديانة المسيحية

مثل الغزاة الفرنسيين، فهل كان هؤلاء يستعملون معه نفس الطريقة؟"[42]. ورغم قناعتنا -مع حمدان خوجة- أن الدافع الديني لم يكن وحده وراء غزو الجزائر، إلا أن المعطيات التاريخية تفيد أن هذا الرأي كان رائجا بين الكثير من سكان الجزائر[43]. بل يذكر أنه كانت تروج في هذه الأثناء أخبار، مفادها أن الحكومة الفرنسية كانت قد أعطت أوامر من أجل تنصير المسلمين الجزائريين، ولم يصدر عن الصحف الفرنسية الرسمية آنذاك أي تكذيب لهذه الأخبار.[44]

و ليس هناك ما يدعونا إلى استغراب وجود مثل هذا المشروع في أذهان القادة الفرنسيين-آنذاك- خاصة إذا عرفنا أن قادة الجيش الفرنسي كان معظمهم من الاشتراكيين الملحدين، أو المتحمسين لفكرة جزائر ريفية مسيحية، قائمة على مصادرة الأراضي، وطرد الفلاحين الجزائريين.[45] ويذكر إيميريت أن أغلب السانسيمونيين الذين دخلوا الجزائر "كانت توجهاتهم ذات بعد ديني واقتصادي في آن واحد. غير أن بعضهم غلب عليه الجانب الاقتصادي، أما الأفكار الدينية فعرفت أكثر بين الضباط والموظفين".[46] وإلى جانب هؤلاء العسكريين كان يوجد مناضلون كاثوليك، مشبعون بأفكارهم، ومنخرطون في **حرب مسيحية مقدسة**، "لإعلاء كلمة الله و نشر الحضارة"[47].

و سوف يطول بنا العرض بما لايسمح به المقام، لو أردنا أن نستعرض جميع تصريحات الغزاة الأوائل عسكريين ورجال دين ومناضلين مشبعين بأفكارهم. و لكننا نكتفي في هذا الصدد بذكر موقفين: الأول منهما لمسافر عادي والثاني لرجل دولة، وذلك لنعرف تقاطع الأفكار حول موضوع التنصير بين رجال الدين ورجال الدولة في الجزائر.

إن **لويس فيو** L.Veuillot، عندما وضع رجله على أرض الجزائر، كمسافر عادي، رجعت إليه ذكريات الحروب الصليبية، فصرخ قائلا : "كم كنت أتمنى في لحظتي هذه أن أرتدي بذلة جنودنا، وأن أحس بأن أحد سيوف الله تتدلى على ساقي، أضرب بها هؤلاء الأعداء الشرسين"[48]. كما أننا نجده يذكر أسماء رجال الكنيسة الإفريقية الصليبية من **غودو فروا دي بوين**، إلى **سان لويس**، يطلب منهم "أن يباركوا الجندي الفرنسي، وأن يشدوا أزره في غزو الجزائر".[49] وقد أوصى الصحفي **بوديكور** Boudicour بجلب المارونيين من لبنان لتسهيل نشر المسيحية في إفريقيا.[50]

أما بالنسبة للجهات الرسمية في السلطة، فقد أكد سكرتير الحاكم العام الفرنسي بالجزائر، عام 1832 على نفس الروح الصليبية قائلا: "إن أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عاما، لن يكون للجزائر إله غير المسيح. ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكن أن تشك، على أية حال، بأنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد"[51].

غير أن الشك يبقى يراودنا حول مدى جدية رجال الدولة وجنرالات الجيش الفرنسي بالنسبة إلى التنصير، اذ أننا لا نعتقد أنه كانت لدى أغلبهم نية دينية خالصة في نشر المسيحية بين المسلمين الجزائريين. وإنما تندرج توجهاتهم – برأينا– في إطار السعي إلى تحقيق سياسة وإسعة النطاق، تعتمد على تدعيم الاستيطان الأوربي، وخدمة مصالحه، عن طريق الاستيلاء على ثروات البلاد، ولكن هذا المشروع ظل متوقفا على "**إزالة العائق**، المتمثل في العقيدة الإسلامية[52]،

وما يرتبط بها من تصورات وسلوكيات تمارس تأثيرها على **اللاشعور السياسي** للجزائريين في مقاومة الاستعمار.

وهذه النظرة، نظرة **العودة بالجزائر إلى ما قبل دخول الإسلام**، هي التي بدأت تتبلور شيئا فشيئا، وتترسخ بالتحارب الميدانية، وتحل محل وضعية "**الجهل بالأخر**"، والجهل بما يجب عمله. وقد صرح بذلك أحد الكتاب في قوله: "إن دروس الماضي تعلمنا أن العرب لا يندمجون كليا إلا في الأمة التي تفرض عليهم في كل مكان لغتها و دينها"[53]. و هذا المنطق -في رأينا- هو الذي سيوجه مشروعات الاستعمار ضد البنى الأصلية للمجتمع الجزائري، خصوصا بعد أن صار واضحا، سنة 1842، أنه من الصعب تنصير المسلمين، وذلك بفعل" ضغط المجتمع الجزائري"[54]، الذي بقي محافظا على بناه الثقافية والروحية. وسوف نلاحظ أن هذه المرحلة بالذات، أي الأربعينات من القرن التاسع عشر، هي التي شهدت تحطم نظام الأوقاف كليا.

2- الأوقاف:

لقد نص البند الخامس من معاهدة 5 جويلية 1830، بين قائد الحملة الفرنسية ديبورمون والداي حسين، على حرية العمل بالدين الإسلامي، واحترام كل ما يتعلق به و يرمز إليه. كما نص البند نفسه على احترام الممتلكات. ولكن الأيام أثبتت أن هذه المعاهدة كانت كما قال دو روفيقو بمجرد خدعة حرب، لأن الفرنسيين خرقوها، باستيلائهم على أمكنة العبادة، و الأوقاف، و الزوايا، والمؤسسات الدينية الأخرى[55].

إننا نفضل أن لا ندخل موضوع الأوقاف من جانب المعاهدات السياسية لأنه-في رأينا- لم يعد هناك مجال سياسي ما دام الطرف الوحيد في السلطة هو الاستعمار و مؤسساته. وإنما نريد أن ندخل الموضوع-جريا على المنهج الذي اخترناه منذ البداية- من فهم الاستعمار لبنى المجتمع الجزائري.

لقد أكد حمدان خوجة أن الفرنسيين كانوا يجهلون الدور الاجتماعي والثقافي و السياسي الذي كان يؤديه نظام الأوقاف بالجزائر، وشرح للسلطات الفرنسية كل ذلك بالتفصيل. وأكد على كون الأوقاف، في تشريعاتها وتنظيمها «قائمة على مبادئ أخلاقية و حضارية»[56]. غير أن السلطات الفرنسية، لم تكن لها سياسة واضحة، في هذه المرحلة خصوصا. بل إنها كانت تقوم بمجموعة من الإجراءات حسب الحالة التي تواجهها و لم يكن لها، في ذلك مذهب واضح إذ كانت تتعامل مع الواقع ومع «الممكن كما يمكن»[57]. كما أن جهلها-هذه المرة- بشؤون الأوقاف كان -حسب ما تصرح به المصادر الفرنسية- راجعا إلى انعدام الوثائق الإدارية التي ضاع أغلبها بعد الغزو. وهو الأمر الذي صعب إدارة شؤون البلاد بعد خروج الأتراك[58]. فاحترام الأتراك من قبل لشؤون الأوقاف والمؤسسات التابعة لها ضمن خضوع السكان للسلطة المركزية ووفر الأمن عبر طرق المواصلات. وهذه هي الفكرة التي حاول حمدان خوجة توضيحها للإدارة الاستعمارية. إذ ذكر أنه «لا يمكن إخضاع القبائل في داخل البلاد إلا بالتأثير على العقول و الأرواح. ولا يكون ذلك إلا بتطمين العرب على مصير مؤسساتهم الدينية».[59]

و قد اتضح أن نظرة الاستعمار للأوقاف كانت جزئية؛ ذلك أنها كانت تفصل هذه الأخيرة عن البنى الكلية للمجتمع الجزائري وكانت-أيضا- تنطلق من زاوية واحدة هي زاوية السلطة. فقد قدر بعض القادة العسكريين خطورة بقاء هذه الأوقاف بأيدي أصحابها لأنها سوف تساعدهم على الثورة. و يمكن أن يكون هذا التفكير في محله إذا عرفنا أن معظم الثورات ضد الاستعمار كانت من تحريك الجمعيات الدينية[60].

وانطلاقا من هذه النظرة النفعية لشؤون الأوقاف، وبمقتضى قرار 7 ديسمبر 1830، صارت جميع الأوقاف ملكا للدولة الفرنسية، و تابعة لمصلحة الدومين (= أملاك الدولة). غير أنه أبقي على الوكلاء الذين كلفوا بجمع دخلها، وتسليمه إلى السيد **جيراردين**، الذي عين مديرا لهذه الأملاك[61]. وقد أعتبر الجزائريون قرار 7 ديسمبر 1830 تدخلا صارخا في شؤونهم الدينية ورأوا فيه اعتداء صريحا على بنية اجتماعية كاملة، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار ما كان يفهمه الجزائري، في ذلك الوقت بشأن الأوقاف، ربما أكثر مما يفهمه اليوم الموظف الذي يجمد مرتبه أو يسرح من العمل و يحرم من مصدر رزقه وهذا إضافة إلى طابع القداسة الذي كانت تحمله مؤسسة الأوقاف في أذهان الجزائريين.

أما عن الآثار الناتجة عن مصادرة الأوقاف، فيلخصها **دوتوكفيل** A.DeTocqueville بقوله: "لقد تركنا، المجتمع الجزائري، بتصرفنا هذا أكثر فقرا وفوضى وجهلا، وأكثر بربرية مما كان عليه قبل قدومنا"[62]. وبما أننا تناولنا الآثار الاقتصادية عند الحديث عن الجانب السكاني، فإننا سوف نحاول أن نفحص، في العنصر القادم، التأثير الثقافي والروحي، في مجال التعليم.

3-التعليم وشؤون العبادة.

عندما قدم حمدان خوجة شكاية حول هدم **جامع السيدة** و نهب ممتلكاته، وطلب تعويضا عن كل ذلك، جاء رد وزارة الحربية الفرنسية: "...كيف يمكن تثمين هذا المسجد؟ ما هي قيمة أي مسجد ما إذا أخذنا بالاعتبار (كذا) أن المسجد في نظر المسلمين لا يستعمل لغير أداء الصلاة؟ وعليه فليس للمسجد قيمة مالية، إلا في حالة واحدة، عندما يلمس الاحتياج لإقامة الصلاة. ففي ذلك الوقت يعمد الجزائريون على بناء (كذا) مسجد آخر. غير أن كثرة المساجد اليوم، لا يؤدي حتما إلى ذلك "[63].

إن كثرة المساجد بالمدن كانت قبل الإجهاز عليها-نهائيا- من قبل الاستعمار. ولكن الذي يعنينا أكثر هو نظرة منظري الاستعمار لدور المساجد. ذلك أن هذه النظرة سوف يكون لها أثر على تحطيم البنية الثقافية للمجتمع الجزائري من ناحية، وعلى مقاومة هذا المجتمع، من ناحية أخرى. فهذا التصريح الأخير من جهة رسمية عليا، يفيد أن الاستعمار-في هذه المرحلة على الأقل-***كان يجهل تماما وظيفة المسجد*** لدى المسلمين. ذلك أن دور المسجد بالنسبة إليه، لم يكن يختلف كثيرا عن الدور الذي كانت تؤديه الكنيسة في أوربا. أي أنه-في نظره- لا يمثل سوى مكانا للاتصال بين الإنسان وربه، و هو بهذه الصورة -كما وصف أحد الباحثين الغربيين- يشبه جميع المرافق العامة الأخرى كالمدارس والدكاكين والمستشفيات، ومراكز الشرطة[64]. ومع هذا يعترف التقرير السابق بأن الاستيلاء على المساجد كان يثير سخط الجزائريين وهو السخط الذي كان موضوع مناقشة بين وزير الحربية و السلطات المحلية في الجزائر.[65]

وإذا أخذنا المساجد في إطارها التاريخي، أي مع بدايات القرن التاسع عشر، خصوصا في الجزائر التي عرفت منذ زمن طويل هجمات الأوربيين، فإننا نجد أن دورها كان أخطر من هذا الدور المختزل الذي حاولت السلطات الاستعمارية أن تنسبه إليها. إذ أنها كانت -دوما- تمثل القوة السياسية الخفية، وذلك بمحافظتها على استمرارية الثقافة العربية-الإسلامية، واستعمالها كمراكز، ينظم العلماء - انطلاقا منها- جميع أنواع **المقاومة** الثقافية و السياسية، ضد الاستعمار.[66]

إن هذا **الخطر** الذي كانت تمثله المساجد في الجزائر، إلى جانب الأوقاف التي كانت تموّلها، يفسر لنا إمعان الجيش الفرنسي في هدمها من أجل التأثير على الثقافة العربية-الإسلامية، بقصد اجتثاث جذور الشعب الجزائري الثقافية والروحية، وتجريده من دوافع المقاومة المنبعثة من بناه الذاتية[67]. ولا يتناقض هذا الحكم مع ما قررناه من جهل الاستعمار لوظيفة المساجد. ذلك أن الاستعمار-كما تشهد بذلك المصادر- كان يتعامل مع الواقع اليومي، ويعمل للقضاء على جميع العوائق التي يجد أنها تمنعه من ترسيخ وجوده بالجزائر.

و هناك ما يدل-أيضا- على أن منظري الاستعمار كانوا يجهلون تماما نفسية المجتمع الجزائري[68]. ذلك أنه عندما كانت الإدارة الاستعمارية تصادر الأوقاف و تهدم المساجد التابعة لها، فإنها لم تكن تعي-في نظرنا- المكانة التي يتمتع بها المشايخ و العلماء في المجتمع-آنذاك- وكذلك الخطر الذي يمكن أن ينتج عن تهميشهم و دفعهم إلى العزلة والفقر.

وانطلاقا من هذا "الجهل بالآخر" شرع الاستعمار في هدم المساجد والكتاتيب وبعض الزوايا التي كانت-كما شرحنا- تقوم بوظيفة تعليمية-ثقافية،

وذلك دون أن يكون لها -في بدايات الاستعمار- أي بديل يعوضها في مجال الثقافة و التعليم. وكانت مبررات الاستعمار الظاهرية تتمثل في كون "بعض المساجد يوشك على الانهيار، وبعض الكتاتيب لا تتوفر على الشروط الصحية اللازمة، وبعض الزوايا تعوق مد الطرق العامة "[69]. وقد كان لدى الإدارة الاستعمارية ولدى رجال الدين المسيحي مشاريع تعليمية، في المناطق التي تخضع لنفوذهم في هذه المرحلة[70]. و لم يكن منظرو الاستعمار يتساءلون عن حاجة المجتمع الجزائري والمؤسسات التي تناسبه، وإنما كانوا ينطلقون من الفراغ، ومن نظرهم الخاصة بالنسبة لبناء المشروعات المتعلقة بالتعليم. إذ جاء في بعض التصريحات قولهم:" إن علينا نحن أن نضع له المؤسسات التي تناسبه، وأن نفرضها عليه مهما كان رأيه"[71].

و قد اعتقد بعضهم أنه بمجرد جمع التلاميذ من المسلمين واليهود والفرنسيين، في قاعة واحدة، وتحت إشراف معلمين فرنسيين، وبقليل من الوقت،" يحدث انصهارهم وذوبانهم في المجتمع الفرنسي"[72]، غير أن هذا الطموح بدا بعيدا عن الواقع، ذلك انه بعد تأسيس المدرسة الفرنسية الوحيدة سنة1836 [73]، لم تلبث هذه الفكرة أن اصطدمت بالواقع، ورجع منظرو الاستعمار، سنة 1839، إلى الحديث عن التعصب الديني الذي كان يعوق هذه المبادرة. كما تفطنت السلطات العسكرية، سنة 1847، إلى أخطائها عند محاولة تنظيم المدارس الرسمية للتأثير على البنية الثقافية-الروحية، وذلك بعد أن اصطدمت بمواقف العداء من السكان[74] وكذا من طرف الزوايا[75]..

إن ما يمكن ملاحظته في خاتمة هذا البحث حول إشكالية الفهم ونتائجها هو أن تصور رواد الغزو للمجتمع الجزائري وكذا تصور الجزائريين كان جزئياً

ومشوهاً في أغلب الأحيان وهذه-في نظرنا- زاوية ضرورية لكتابة تحرص على أن تكون موضوعية بقدر ما تسمح به البحوث في العلوم الإنسانية عموماً. وكان نتيجة إشكالية الفهم هذه أن البنية السكانية والبنية الثقافية-الروحية بدأت تتأثر بتوغل الاستعمار، خاصة وأن هذا الأخير بدأ يحرص على تكوين نخبة متفرنسة بعيدة عن البنية الثقافية الأصلية، وستعمل هذه النخبة -فيما بعد- على تكريس الواقع الاستعماري وتسهيل عملية **اختراق** المجتمع الجزائري **بتجاوز جزئي أو كلي لإشكالية الفهم**[76]. ولكن هذا الهدف ظل في هذه المرحلة مطلبا بعيدا، لأن الجزائريين مازالوا ينتظرون-في ثقة قدرية- خروج المستعمر من بلادهم،[77] و لأن الاستعمار في هذه المرحلة كان مشغولا-كليا- بضرورات الحرب والغزو و لم يتفرغ بعد لتحليل الأمور تحليلا قائما على المنطق و لم يكن لدى هذا الأخير الوقت ولا النية لمراجعة تصرفاته ونظرته إلى الأشياء.

الهوامش:

(*) Voir le terme"PERCEPTION" dans: Encyclopédie ENCARTA 2000

[1] A.Djeghloul,In:Khodja,Op.Cit, p.26

[2] التميمي (عبد الجليل)، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الطبعة الأولى، الدار التونسية للنشر، تونس 1972، ص-ص 135-136.

[3] Braudel (F), « Un voyage à travers le passé de l'Algérie », In.: **Revue Africaine**, 1930, p.158

[4] شارل تاريارد، « الجزائر في الأدب الفرنسي حتى سنة 1924 »، أطروحة دكتوراه في الآداب- باريس ، منشورات (Champion) 1925 ،ص645.

[5] محمد الصالح دمبري:« الفرنكوفونية الأدبية والسياسية الاستعمارية في الجزائر»، مجلة الثقافة، الجزائر، السنة 18 ، عدد.101 ، 1988، ص.37

[6] Emérit, Les Saint-Simoniens en Algérie, Paris 1941,p.15

[7] Ibid, p.317

[8] Lacheraf (M), L'Algérie: nation et société, S.N.E.D, Alger 1976, p. 205 .

[9] Turin (Y), Affrontements culturels , E.N.A.L, Alger 1983,p. 7 .

[10] Hamet (I), les Musulmans français du Nord de l'Afrique, Ed. Armand Colin, Paris 1906 , pp.116-117

[11] سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية، ج.1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1992، ص.25

[12] تشر شل (ش-هـ)، حياة الأمير عبد القادر، الطبعة الثانية، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982، ص .71

[13] Hamet (I), Op.Cit, p.116.

[14] سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية، جـ1 ص.157

[15] Turin (Y), Op.Cit, p.31.

[16] Joëlle (Radouane), L'Orient arabe vu par les voyageurs anglais, E.N.A.L , Alger 1988 p.22.

[17] Massé (H), "Les études arabes en Algérie", In. **Rev-Afr,** 1933, p.209.

[18] الزبيري (محمد العربي)، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1973، ص 157.

[19] تشرشل (شارل،هنري)، حياة الأمير عبد القادر، ص.49

[20] Nadir (Ahmed),"Les ordres religieux et la conquête française (1830-1851)"In: **Revue des sciences juridiques, économiques et politiques,** Alger (Dec-1972) vol. IX, n° 4, p.835.

[21] سعد الله (أبو القاسم)، الشاعر المفتي محمد ابن الشاهد واحتلال الجزائر، الثقافة، الجزائر، عدد 61، يناير-فبراير، 1981، ص ص15-16

[22] Khodja (H), Op.Cit, p.213.

[23] Desparmet, « L'entrée des Français a Alger par le cheikh Abd El Kader», in: **Revue Afr.**,N.71,1930,pp.230_231

[24] جلال (يحي)، الإستعمار والإستغلال والتخلف، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر 1956. ص.5

[25] Djeghloul (A.), « M'Hamed Ben Rahal et la question de l'instruction des Algériens »in: Huit études ,(cours polycopies), p.101

[26] الزبيري (محمد العربي)، المصدر السابق، ص.153.

[27] نفسه، ص.ص.153-154.

[28] Lacheraf (M.), Op.Cit, p.45

[29] التميمي (عبد الجليل)،المصدر السابق، ص.145.

[30] نفسه .

[31] Sahli (M.Ch), Décoloniser l'histoire, Ed.Maspéro, Paris 1965, p.103.

[32] بن أشنهو(عبد اللطيف)، تكون التخلف في الجزائر، ترجمة نخبة من الأساتذة، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1979، ص 86.

[33] Yacono (X.)," Peut-on- évaluer la population de l'Algérie vers 1830", In : **Revue. Afr** , 1954, p 277

[34] Sahli (M-C), Op.cit, mp.

[35] Lacheraf (M.) , Op.Cit, p.217

[36] Adala (M.), Op.Cit, p.290.

[37] Lacheraf (M.),Op.cit. p.230.

[38] Bernard(A), L' Algérie ,Paris 1930, p.218

[39] Sahli (M-C), Op.Cit, p.103

[40] Tournier (J.), Op.Cit, p.247.

[41] Ibid, pp.247-248.

[42] Khodja (H.), Op.Cit, p. 213.

[43] Ibid

[44] Ibid, p. 215

[45] Lacheraf (M.), Op.Cit, p 218.

[46] Emerit , Les saint_Simoniens en Algérie, p.315

[47] Lacheraf (M.), op.cit, p 210.

[48] Lacheraf (M.), l'Algérie nation et société, p 210.

[49] Ibid.

[50] Yver (G.), Les Maronites et l'Algérie, Rev. Afr., 1920, p. 175

[51] إبن نعمان (احمد):" العلاقة الجدلية بين الإستعمار الثقافي والشخصية الجزائرية "، **الثقافة**، الجزائر، عدد 49، يناير-فبراير 1979، ص 123.

[52] صاري (الجيلالي):" الإسلام عامل رئيسي لإثبات الشخصية الجزائرية"، **الثقافة**، الجزائر، عدد 75-76، 1980، ص 330.

نوظف مفهوم الاشعور السياسي هنا بالمفهوم الذي حدده الجابري في كتاه : العقل السياسي العربي (ص 12) بقوله : إن" الجماعات البشرية المنظمة لها لاشعور نوعي خاص بها، تشكل الديانات ومايقوم مقامها من الإيديولوجيات أكثر أعراضه وضوحا.. "

[53] Tournier (M.), Op.cit. p. 259

[54] Ibid, p. 239

[55] بقطاش (خديجة): " أوقاف مدينة الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي "، **الثقافة**، الجزائر، عدد 62 (مارس- أبريل 1981)، ص 75.

[56] Khodja (H.), Op.Cit, p .231.
[57] Germain (R.), Op.Cit, p. VII
[58] Emerit (M.), l'Algérie à l'époque d'Abd El Kader, p.240
[59] Khodja (H), Op.Cit, p p 97-98
[60] بقطاش (خديجة)، مقال سابق، ص.76
[61] نفسه، ص 77.
[62] Agéron (ch-R), Histoire de l'Algérie contemporaine, série «que sais- je?», p 233
[63] التميمي (عبد الجليل)، المرجع السابق، ص 150.
[64] Cheristellow (A.), Op.Cit, Art. cité, p. 125
[65] التميمي (عبد الجليل)، المرجع السابق ، ص.150
[66] Taliadoros (G.A), Op.Cit , p.46
[67] عز الدين (بجلاء) ، العالم العربي، ترجمة محمد عوض وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، (د.م)، (د.ت)، ص ص 283-284.
[68] Lacheraf (M.), Op.Cit, p.74
[69] سعد الله(أبو القاسم)، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ص 60-61.
[70] أحمد محمود (حسن)، الإسلام والثقافة العربية في افريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة 1986، ص39.
[71] Lacheraf (M.), Op.Cit, p.258
[72] Turin (Y.), Op.Cit, p.41
[73] Sahli (M.C), Op.Cit, p.113
[74] سعيدوني (ناصر الدين) واليوعبدلي (المهدي)، المرجع السابق، ص145.
[75] Dépont (O.) et Copolani (X.), Op.Cit, p.260
[76] ابن النعمان (احمد)، المرجع السابق، ص119.
[77] سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، جـ1، ص84.